الأدب والمكان والشعر عند العرب

بقلم مدني صالح

١ ــ ان السياب والبياتي وسعدي يوسف وادونيس وخليل حاوي ونزار قباني وصلاح عبد الصبور شعراء وقد كتبوا شعرا وانت اذ تقرا لهم انما تقرأ شعرا ثق !! وهذا هو كل تعريف للشعر .

٢ ــ وان الرصافي والزهاوي والجواهري وابن مالك صاحب الالفية في النحو نظام ... وانت اذ تقرأ لهم انما شعرا في حدود الوزن والتشبيه والقافية الحسن وبلاغة الصياغة ورنين العبارة بين جزالة الاسلوب واشراق الديباجة من جهة ، وبين رقة الحاشية واختيار اللفظ المؤثر في السامع وفق متطلبات الحاجة تارة ووفق المصلحة العامة اخرى وتمشيا مع المناسبة الطارئة في حالة ثالثة وهكذا .

اما ان جاوزت حدود جزالة اللفظ وسهولة العبارة وحسن الارشاد والموعظة الحسنة ومتانة الصيغة واشراق الديباجة ومطابقة القول لمقتضى الحال ، فانك لن تجد فيما تقرأ لهؤلاء غير نظم بريء من الشعر براءة الذئب من دم ابن يعقوب رغم شدة الادانة وشيوع التهمة ... وهذا هو كل تعريفي للنظم البريء من الشعر ...

٣ ــ اما حين تقرأ مستعرضا شعر شوقي وابي شبكة والاخطل الصغير وامين نخلة وابي ريشة فانك تحس ، اذ تقرأ لهم ، شعرا مخنوقا تحت اغطية مزهقة من النظم ووراء دخان كثيف يشتد على شعر القصيدة خنقا وبيتا بعد بيت كلما اشتدت رتابة القافية على الشاعر خنقا وتضيقا .. وهذا هو كل تعريفي للشعر المخنوق ..

ولك من بعد هذا ان تصنف شعراء العرب ، ان شئت وراق لك ، انماطا واتجاهات على نحو ما وصفنا ، او على نحو ما تطرفنا ان توخيت الدقة في الوصف وراق لك التطرف !! ولتطرف مخلص خير الف الف مرة من اعتدال متواطىء !!

ولك ان شئت واستهوتك الفكرة ــ وعساها تستهويك ــ ان تسلك مثلا بلند الحيدري ونازك الملائكة وفدوى طوقان وفؤاد رفقة مسلك الشعراء .. وان تسلك محمود سامي البارودي وعبد الغفار الاخرس وحافظ وعظيمين كالمتنبي والمعري مسلك النظام .. واسلك اخيرا ابن ابي ربيعة وابي نؤاس مسلك الشعر المخنوق ..

ثم واصل من بعد هذا النمط في التصنيف استعراض طبقات الشعراء عبر تاريخ الادب العربي منذ اصحاب المعلقات حتى صاحب « مأساة الحلاج » وهو صلاح عبد الصبور ، صاحب اول نص ادبي تكاملي في تاريخ الادب العربي ..

اضف الى هذا صعوبة نسبة اي من شعراء مرحلة ما قبل البياتي والسياب الى مرحلة الشعر رغم كل ما في الاشارة الى هذه الصعوبة من حقيقة قد لا يرضى عنها كثير من المهتمين بالفكر العربي بل وقد لا يتورع بعض الناس من توقع وافتراض طقوس واحوال وراء الاشارة الى مثل هذه الصعوبة ..

ووجه الصعوبة محض ظاهرة قد لا تستوقف الا قليلا من المهتمين بالشعر العربي لكنها تستوقفني بشدة وبوضوح .. وهذه الظاهرة هي ان الشعر فن فتحت به الظروف الحسنة على العرب بالبياتي والسياب وتابع من بعدهما المسيرة شعراء حتى تمام الفتح بعبد الصبور.

لكن النقاد يسوون من الحبة قبة فبيتا فمحلة فمدينة .. ويسوون المدينة من بعد ذلك عاصمة تضج بناطحات سحاب المصطلحات المعقدة وبفصول سيركس نظريات مفتعلة اسرافا ومبالغة !!

والنقاد يفصلون للبراغيث قمصانا وسراويل واحذية ومعاطف واربطة .. اسرافا في الحذلقة !!

وهكذا سوى النقاد من بداية الشعر في الادب العربي قضية ونفخوا فيها نفخا عنيفا حتى خيل للقارىء البريء ان شعر الجاهليين في خطر وان شعر المخضرمين في خطر وان امجاد شعر العرب وكيان ومصير العرب في خطر امام موجة الجديد في الشعر والجديد في الحياة .. فهاج قراء وماج نقاد وتعنتر اميون طالت بهم سنون التحنيط وتثاءبت ملء الكسل ترهلا واشتد بهم الشوق الى ممارسة عنتريات فارغة في سبيل رفض الجديد ... كل جديد !! « ... لان الجديد بدعة ... والبدعة ضلالة ... وكل ضلالة الى النار » ..

والقضية ، كل القضية ، هي ان هؤلاء قد استكثروا واستغربوا ان يبدأ في ادب العرب شعر بعد ان طالت عصور نظم الخرائد والمشطرات ، وتمطت التخميسات والتسبيعات وتثاءبت اراجيز في المدح وفي الرثاء وفي النحو والصرف وفي الفخر وفي العقائد والمواريث وفي «العنتريات التي ما قتلت ذبابة» وفي استعطاء واسترضاء وتملق السلاطين ..

لكنها خصومة عابرة بين قديم وحديث في بيئة اهل الكهف واهل الكهف لا يدرون كم على وجه الدقة قد لبثوا ... ويحسبون ، وهما ، وتخمينا ، انهم انما قد ناموا يوما او بعض يوم وان مرور اليوم لا يخلق جديدا ولا يذهب بطرافة ادب ... ولم الجديد وما الحاجة الى التجديد ونومة اهل الكهف بعض من يوم وبعض من ساعة ؟؟ ما حاجة اهل الكهف الى جديد ؟

ولخصوم بعض الجديد حق كلما اشتدوا على ادب القيء والغثيان والدوخة والصداع والضياع .. ولهم حق الثورة بوجه نقد الارهاص والازمات والمعاناة .. وذلك لان الادب فن والفن اولا وقبل كل شيء ببساطته

.. والبساطة اساس الجمال .

ولهؤلاء الحق اضعافا مضاعفة خاصة حين يستمد الضياع والقلق والاندحار من ضياع وقلق واندحار كاتب آخر في بيئة اخرى وظروف معقدة ..

ولهم حق ثابت مكتمل جميع اركان الشرعية حين يسرف بعض الكتاب في « تكويم » جمل وعرة واكثر وعورة من اي نثر فظ معتبرين من نثر سطرين في صفحتين مقوما من مقومات الشعر الحديث وما هو يشعر وما هو بنثر وانما هو شيء حديث ... قل اي شيء حديث !!! أي شيء سمج فظ غبي لا يمتع ولا يجدي نفعا ولا يساوي قشة تبن في التقييم .

٤ ـ والآن دعنا نراجع سؤالا تقليديا تعبت منه القراطيس والاقلام وضجت من تكراره الممل حروف المطابع ومجه الطباعون ! ما هو موقف العرب من تراثهم الشعري جاهليا وامويا وعباسيا واندلسيا ؟؟ آملا ان لا تجيء اجابتي على هذا السؤال تقليدية وراجيا ان تجيء الاجابة كأبسط ما تكون اجابة وفي كلمات معدودات وعلى نحو ما يلي :

لا ينبغي لموقف العربي المعاصر ان يكون من هذا التراث الا انعكاسا لموقفه العام من العصور الجاهلية والاموية والعباسية والاندلسية بجميع ما يتضمن هذا الموقف من احوال سياسية واجتماعية واقتصادية وفلسفية . وعدد ما شئت من الفعاليات الحياتية على صعيديها النظري والعملي ...

وهذه مواقف نسبية تعينها مصلحة وثقافة واذواق وميول الناس ، وبهذا سنجد مجالا للتسامح مع اولئك الذين افتضت ثقافتهم وقضت اذواقهم وحتمت مصلحتهم ـ مادية ومعنوية ـ ان تعاد السنة الهجرية الاولى سنة بعد سنة وجيلا بعد جيل وتاريخا بعد تاريخ سنة هجرية اولى مؤبدة على الناس ما دامت السموات والارض .

٥ ـ لكن شعر العرب ـ مع تبريري التام والموسع عذرا للسلفية ـ قد بدأ في العراق وبدأ بالبياتي وبالسياب وان مستقبل الشعر جدير بالتطلع والاهتمام اذ انه قد بدأ اخيرا نحو ادب متكامل في اداء مسرحي على ما نحو ما نجده عند شكسبير ودانتي وجوته وايليوت بعيدا عن نقائض جرير والفرزدق وبعيدا عن حكميات ابي العلاء والمتنبي وعن اصلاحيات وحماسيات الرصافي والزهاوي والجواهري والمعلقات السبع بكل ابلها وبعر الارام في عرصاتها وبقايا الوشم في ظاهر اليدين وبض الساقين ولف المآزر على دعص الرملين !! وبعيدا عن تقليد الاولين بدافع من اخلاص للحاضر وللذات في الحاضر .. وللذات المتطلعة الى مستقبل افضل لا الى ماض احسن !!

٦ ـ واساطين البداية نحو الادب المتكامل في اداء روائي ـ مسرحي هم لا شك البياتي وادونيس وصلاح عبد الصبور ، وعلى نحو ما يلي :

البياتي في « محاكمة من نيسابور » وهي رائعة نهبت اعجابي .. كل اعجابي ، رغم طابع السرعة والتسرع وتعجل ساعة فرح الطبع والنشر والشهرة فالصيت الحسن ، آفات الابداع والخلق المعجز عموما وآفة التفكير والكتابة والفكر بين المعاصرين العرب على وجه الخصوص والتحديد ..

وادونيس في « اغاني مهيار الدمشقي » و « كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل » والرائعتان مجد حين القضية قضية مكارم ابداع وقضية امجاد ، رغم ان ادونيس قد اسرف بعض الاسراف في الاخذ برباعية الشهرة الادبية وصيت الفكر الحسن وتعجل افراح النشر مثلما يتعجلها الجميع ..

اضف الى هذا ان ادونيس يتسرع كثيرا بدافع من ثقة طاغية بنفسه ـ وهي ثقة لا الومه عليها ـ وبدافع من استهانة بينة بذكاء قرائه ، وهي استهانة لها حتما ما يبررها ... اعترف !! لكنني لا اجد مبررا لطغيان ثقته بنفسه على حساب كمال عمله وهو ثالث ثلاثة نحو ادب عربي عبر حدود محلية هلك في حدودها الادب قرونا عجافا خاويات .

وثالث اساطين الادب التكاملي بين شعراء العرب صلاح عبد الصبور في رائعته المذهلة « مأساة الحلاج » رغم بعض من تعجل فرح انهاء مقطع هنا والانتهاء من متاعب فكرة هناك وتهرب من اعادة كتابة فقرة او تحوير اخرى بدافع من ملل او ربما بدافع من تعجل افراح رباعية الشهرة والصيت الحسن ... ومن لا يتعجل ساعة فرح في بيئة ان لم تتعجل فيها الافراح فاتتك !!؟

وهنا لا بد وضمانا للحق واعترافا بالجميل وبالفضل وتقديرا للقابلية والموهبة ان اشير الى رائد الادب التكاملي في الشعر العربي واريد به شوقي في مسرحياته ..

لكن شوقي اخفق في محاولته بسبب خضوعه لقوالب الشعر التقليدي وبسبب انسياقه مع الاحداث انسياق مؤرخ ورع يتوخى الحقيقة والواقعة والحدث كما وقعت ، وان تعدى هذه الحدود الى شيء آخر فانما يتعداها الى ارشاد مخلص ونصح أمين وموعظة حسنة .

واخيرا اراني ملزما بذكر ما كان علي أن ابدأ به فاقول ان الادب التكاملي ادب شمولي مثلما الحياة شمولية متكاملة وان هذا اللون من الادب يمثل معينا لا ينضب يستمد منه الخلاقون وحيا في الرسم والنحت والباليه والاوبرا والسيمفوني والرواية وفي سائر نواحي الحياة بما في ذلك الاستشهاد حين الحاجة وحين لا يجد المستشهد مناصا من اللجوء الى فقرة يشفي بها غليلا ..

والادب التكاملي يتعدى الحقيقي الثابت الى متعدد الجوانب الزاخر بالظلال ... وهي ظلال تترك للقارىء وللناقد مجالا يبصر في حدوده ما يتلاءم والوضعية والظروف عبر حدود الزمن اطلاقا وفي كل مكان .. ومن هنا يأخذ الادب المتكامل صفته الكلاسيكية والتي تفرضه انسانيا لاصقا بالانسان معبرا عن الانسان عبر العصور بصرف النظر عن الاحوال الطارئة والتي لا تغير ما هو انساني جوهريا .

مدني صالح